التفاؤل والتشاؤم

عند فلاسفة عصر التنوير

أ.م.د جعفرحسن الشكرجي
كلية الآداب ـ جامعة بابل

المقدمة

للتفاؤل (Optimism) كما للتشاؤم (Pessimism) معان متعددة[١]، غير أننا سنكتفي بالإشارة فقط إلى معنى هذين المفهومين كما تجلى في ذهن فلاسفة عصر التنوير الأوربي. معنى التفاؤل هو أن هذا العالم يغلب فيه الخير على الشر والسعادة على الشقاء. أما معنى التشاؤم فهو على العكس من ذلك تماماً، أي أن هذا العالم يغلب فيه الشر على الخير والشقاء على السعادة. وقبل أن نعرض مذاهب أبرز فلاسفة عصر التنوير الأوربي في موضوع التفاؤل والتشاؤم، وهو أول عصر شهد اهتماماً جدياً بهذه المشكلة، نعتقد أن من المفيد أن نذكر باختصار شديد اتجاهات فلاسفة القرن السابع عشر في هذه المشكلة، لأنهم مهدوا لمناقشتها في القرن الثامن عشر، أي في عصر التنوير.

ربما تعد النزعة العقلية في القرن السابع عشر من وجهة نظر ميتافيزيقية، تفاؤلية. لقد دعم هذه التفاؤلية، كل من ديكارت Descartes (١٥٩٦- ١٦٥٠) وسبينوزا Spinoza (١٦٣٢- ١٦٧٧) وليبنتز Leibniz (١٦٤٦- ١٧١٦) بإيمانهم الراسخ أن الشر محدود، وأن أفكارنا تنتقل من التشوش والغموض وعدم الملاءمة باتجاه الوضوح والتميز والملاءمة، وأن خيرية هذا العالم وخيرية حياتنا تتكشفان بطريقة مقنعة على نحو جازم[٢].

طبعا ليس كل فلاسفة هذا القرن قبلوا النزعة الميتافيزيقية المتفائلة، كباسكال Pascal (١٦٢٣- ١٦٦٢) ولوك Locke (١٦٣٢- ١٧٠٤) وبيير بايل Pierr Bayle (١٦٤٧- ١٧٠٦). ويعد الأخير أهم هؤلاء الثلاثة وأوضحهم في تبني موقف تشاؤمي من الطبيعة الإنسانية، إذ كثيرا ما كان يصرح أن الجنس البشري شرير وبائس وأن كل إنسان يعرف هذه الحقيقة[٣]. وجادل بقوة بعدم وجود حل عقلي، ومن ثم فلسفي، يمكن الدفاع عنه لمشكلة الشر[٤]، أي ليس من سبيل إلى التوفيق بين وجود الشر ووجود إله يتصف بالقدرة الكلية والخيرية المطلقة. لذلك رأى ضرورة الأخذ بالمانوية، وهي ديانة فارسية تؤمن بوجود إلهين أحدهما يأتي منه الخير والآخر الشر، لتبرئة الله من جميع أشكال اللوم[٥].

هذه الآراء التشاؤمية لبايل حفزت ليبنتز على الرد عليها وإبراز مذهبه التفاؤلي، وهو مذهب أنكره فولتير بشدة، مطورا أفكار بايل التشاؤمية. غير أن هيوم رفض هذين الموقفين، مشككاً بإمكانية وصول العقل البشري إلى رأي قاطع بخصوص هذه المشكلة.

١. ليبنتز المتفائل:

ناقش الفيلسوف الألماني غوتفريد ولهلهم ليبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦- ١٧١٦) مع ملكة بروسيا آراء بايل التشاؤمية، وقد حثته على وضع ردوده عليها كتابياً. بعد وفاتها جمع عناصر محاوراته معها، فألف منها أحد أكبر أعماله "العدالة الإلهية Theodicy"، وعنوانه الفرعي: مقالات في خيرية الله وحرية الإنسان وأصل الشر، وهو الكتاب الفلسفي الرئيس الوحيد الذي أشرف على نشره خلال حياته عام١٧١٠. وفي الواقع، أن ليبنتز في كتابه هذا، كان يطمح أن يبرئ الله من تهمة أن يكون سبب الشر والمشاركة في تعذيب البشر، والتأكيد على أن ما يسمى شراً هو في الحقيقة خير بحكم ضرورته لعالم أفضل وأجمل. يعترف ليبنتز في مقدمة كتابه المذكور أن مسألة إنتاج الشر وأصله أحدى الألغاز الكبرى التي كثيراً ما ضللت عقول الجنس البشري [٦].

يرتبط مبدأ التفاؤل عند ليبنتز بنظريته في أن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة. إذ لما كانت أفكار الله تحتوي على عدد لا حصر له من العوالم الممكنة التي يستحيل أن يوجد منها إلا عالم واحد، فيلزم أنه كان هناك سبب كاف لاختيار الله، جعله يفضل هذا العالم بعينه دون غيره، وهذا السبب هو أن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة[٧]. وهذا العالم يتحد فيه أعظم قدر من التنوع مع أعظم قدر من النظام ، حيث ينتفع بالأرض والمكان والزمان على خير وجه، ويحقق أعظم النتائج بأبسط الوسائل، حيث زودت المخلوقات من القوة والمعرفة والسعادة والخير أعظم قدر يمكن أن يسمح به العالم[٨]. وهذا يعني " أن الله يفعل كل شيء على أفضل وجه نتمناه"[٩].

ولكن إذا كان هذا العالم هو أحسن عالم ممكن، فكيف نفسر إذن وجود الشر وهو سائد فيه؟.

يجيب ليبنتز على ذلك بأن كل الشرور الفعلية في العالم هي عناصر جوهرية فيه، ولذلك فإن حذف أحد هذه العناصر سيؤدي إلى فساد تصميم العالم كله[١٠]، صحيح أن بوسع المرء أن يتصور عوالم ممكنة لا خطيئة فيها ولا ألم ، كما أن بوسع المرء تأليف روايات عن عالم الخيال. ولكن هذه العوالم لابد أن تكون أدنى قيمة من عالمنا منزلة. إذ لو لم توجد إلا الفضيلة، أو المخلوقات العاقلة وحسب، لكان مقدار الخير الحاصل أقل، فعندما قيض لميداس[١١] أن لا يملك إلا الذهب، بات أفقر مما كان[١٢]. فوجود الشر، إذن، مطلوب لخير أعظم ولعالم أجمل، فإذا

كان وسيلة لهذين الهدفين خرج عن كونه شراً، وأصبح خيراً، لذلك فإن الله يسمح به. وعلى هذا الأساس، يبرر ليبنتز وجود أنواع الشرور الرئيسية في هذا العالم، وهي ثلاثة: الميتافيزيقية والطبيعية والأخلاقية على النحو الآتي:

أ. الشر الميتافيزيقي: وهو النقص الأصلي الموجود في المخلوقات قبل الخطيئة. إذ لما كان الله هو الكامل الوحيد، فإن الكائنات التي خلقها يجب أن تكون منطيقاً أقل كمالاً منه، أي ناقصة ومحدودة، وإلا لكانت هي الله نفسه. والله ليس هو سبب هذا النقص في كمال هذه المخلوقات ، لأن هذا النقص ملازم لطبيعتها ، ونجده في أي عالم يخلقه الله(١٣). لكن إذا عرفنا أن الله لم يخلق أي موجود إلا وقد لحظ مكانه في الكل، وأنه خلق العالم باعتباره خير العوالم الممكنة ، استنتجنا من ذلك أن كل مخلوق حاصل في كل لحظة وآن على الكمال الذي هو حقه، إذا نظرنا إلى الأشياء في جملتها، ولكن بما أننا لا نستطيع أن ندرك الأشياء إلا مفرقة ومجردة، فإن المخلوق يبدو لنا أقل كمالاً مما كان يمكن أن يكون. (١٤)

ب. الشر الطبيعي: كالفيضانات والزلازل والبراكين، وهي تمثل اعتراضاً مهماً من الاعتراضات على ذلك التناغم الجميل الذي يقدم الطبيعة على أنها نظام يتميز بنوع من الاستقرار. يجيب ليبنتز على هذا الاعتراض بقوله: " من حين إلى آخر تعود بعض أجزاء الكرة [الارضية] إلى الحالة الوحشية، وقد تخرب أو تغمر [بالماء]، ولكن وجب اعتبار هذه الأحداث ، كما تعتبر البلوى. فهذا التخريب أو هذه الفيضانات تطور بعض النتائج المفيدة بصورة تجعلنا، بشكل من الأشكال، نربح من تلك الخسارة"(١٥). ويرى أيضا أن الشرور الطبيعية لها أثر ملحوظ في نواحي متعتنا، لأن أجمل الألحان لا يمكن أن تخلو من بعض الأنغام المتنافرة(١٦).

ج. الشر الأخلاقي: وهو الخطيئة، ويقصد به النقص الموجود في الفعل الإنساني، الذي يفتقد إلى الكمال الاخلاقي الذي يجب أن يكون حاضراً فيه. يؤكد ليبنتز على أن الله لا يرغب بوقوع مثل هذا الشر، ولكنه يرغب أن يحوز المخلوق بخيرية حرية الإرادة، عالماً بأنه يرتكب الشر أحيانا، ومع ذلك فأنه يسمح به، وإن كان لا يرغب فيه، وذلك لإنتاج خير أعظم في العالم(١٧). فلولا خيانة يهوذا لما كان المسيح صلب وخلص البشر(١٨).

وعلى كل حال ليست الشرور من الكثرة والخطورة على ما يقوله المتشائمون: إنها لتعد كمية مهملة بالقياس إلى الخيرات في الحياة الإنسانية وفي جملة العالم، ويمكن التغلب عليها بالعقل والمران. (١٩)

ولا تتجلى فلسفة ليبنتز التفاؤلية في نظريته أن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، ولا في نظرته للشرور على أنها مفيدة وضرورية لخير أعظم ولعالم أجمل فقط، وإنما تتجلى أيضا في أشارته إلى إمكانية " أن يبلغ الجنس البشري في مجرى الزمان كمالاً أعظم مما نستطيع

تخيله في الوقت الحاضر"[٢٠].

بهذه الآراء استحق ليبنتز أن يدعوه الفيلسوف الفرنسي ديدرو Diderot (١٧١٣-١٧٨٤) أبا التفاؤلية[٢١]. وقد أثرت فلسفته التفاؤلية في عدد من المفكرين والشعراء، نذكر منهم على سبيل المثال الشاعر الإنكليزي الكسندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨- ١٧٤٤) ، الذي نظم قصيدة فلسفية بعنوان" مقالة في الإنسان" . ورأي بوب، بأختصار ، هو: إن الإنسان يجب أن يسلم بمكانه المقدر له في الكون من قبل الله، لأن كل ما هو موجود فهو في وضع حسن . والشر ضروري كالخير تماماً، وما يبدو للفرد أنه شر هو في الواقع خير من وجهة نظر كونية. [٢٢]

٢. فولتير المتشائم:

لم يكن الفيلسوف والكاتب الفرنسي فولتير Voltaire (١٦٩٤- ١٧٧٨) في محاولاته الفكرية الأولى متشائماً. فقد كتب على سبيل المثال في إحدى مراسلاته عام ١٧٣٨: "إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير، فإن في هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى، أكثر مما فيها من مرارة"[٢٣]. ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة، بل على النقيض من ذلك، أعتقد أن في الإنسان إحساساً فطرياً بالعدالة وشعوراً طيباً نحو الآخرين[٢٤].

إلا أن الزلزال الذي أصاب مدينة لشبونة في يوم عيد كل القديسين عام ١٧٥٥ كان له تأثير عاطفي عليه. ومع أن التقديرات الأولية لعدد الضحايا كان مبالغاً فيه، فإن آلاف الأرواح قد فقدت في الموجة المدية وفي الحرائق التي أعقبت الزلزال، التي كانت أكثر شؤماً ، لأن الكنائس مع شموعها احترقت وانهارت فوق جميع المتعبدين فيها[٢٥].

وقد استشاط فولتير غضباً للتفسيرات التي قدمت لتبرير هذا الزلزال، فقد أوضح مثلا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقاباً من الله على الرذيلة التي استشرت في لشبونة[٢٦]. فنظم كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له "قصيدة في كارثة لشبونة" ١٧٥٦، معيدا النظر في المحاولات السابقة الكثيرة لحل مشكلة الشر، مؤكدا على أن وجود الشر اعتراض هائل في أيدي الملحدين[٢٧].

ويمكن تلخيص وجهة نظره في هذه القصيدة على النحو الآتي:

"أنظروا إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة، لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء تحت السقوف التي انهارت عليهم، هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التي تؤذن بالفناء، والدخان المتصاعد في هذا المنظر البشع بقولكم هذا جرى وفق قوانين أبدية طبقاً لمشيئة الله المطلقة الخيرة؟ وهل تقولون

أمام هذه الأكداس من الضحايا لقد انتقم الله منهم وإن موتهم جزاء جرائمهم؟ ولكن أية جريمة وأي خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم في أحضان أمهاتهم؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة، ومع ذلك دمرت لشبونة وباريس ترقص؟ ألم يكن في مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالماً ليس فيه هذا الشقاء الذي لا معنى له؟ وهكذا تئن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعاني ويكون مصيرها الموت. وفي هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع، أية سعادة هذه؟ أيها المخلوق الفاني الضعيف البائس، أنك تصيح في نغمة حزينة" إن كل شيء حسن وعلى ما يرام". إن الكون يقدم لك الكذبة، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك. إن العناصر والحيوان والإنسان كلها في صراع. فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها . وكيف يتفق هذا الصراع الكوني الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خيّر طيب؟ إن الله موجود، ولكنه لغز محير.إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشري ، ولكن الأرض والإنسان بقيا على ما هما عليه على الرغم من تضحيته" (٢٨).

وقد أنهى قصيدته هذه بالتسليم بالتشاؤم، بتأكيده أن هناك شراً إيجابيا في العالم، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئا في مواجهة الشرور كالزلازل غير أن يسلم أمره إلى إرادة الله ويقوم بعبادته(٢٩).

وفي الحقيقة أن شكوى فولتير من الفلاسفة المتفائلين، كما ترد في هذه القصيدة الخاصة بكارثة لشبونة، لم تكن كما يفترض في الغالب، أنهم كانوا مرحين دون استيحاء غاية المرح وأن نظرتهم إلى حقيقة الشر كانت سطحية، بل كانت شكواه أنهم متجهمون غاية التهجم وأنهم جعلوا الشرور التي نبتلي بها تبدو أفظع مما هي الحال، في قولهم: إنه لا مفر منها وإنها كامنة في تركيب الكون الدائم. فالشر الذي لم يعلل كان يبدو لفولتير أخف وطأة من الشر ذاته معللاً ، حيث التعليل عبارة عن التدليل على أن تلافي ذلك الشر نفسه لم يكن مما يمكن تصوره منطقيا منذ الأزل ولن يمكن تصوره حتى الأبد(٣٠).

وعلى الرغم من ذلك، فإن القصيدة لم تذهل المتدينين فقط، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فإن مثل هذه النغمة الكئيبة الجزوعة يبدو أنها أحرجت الفلاسفة، فأرسل جان جاك روسو(١٧١٢-١٧٧٨) إلى فولتير رسالة طويلة بليغة يوضح فيها أن كل ما تعاني منه الإنسانية من علل وشرور، إن هو إلا نتيجة لأخطاء البشر، وأن زلزال لشبونة هو عقاب عادل للإنسان لتخيله عن الحياة الطبيعية وإقامته في المدن، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة في القرى المتفرقة في دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً، وينبغي أن نؤمن بأن الله طيب خير، لأن هذا كما قال روسو هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل، وأن نستمر مع ليبنتز، على الإيمان بأنه حيث

أن الله خلق هذا العالم، فلابد أن يكون كل شيء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقا وصدقا[٣١].

لقد لقيت هذه الرسالة عندما نشرت أكبر الترحيب على أوسع نطاق، واعتبرت ردا بارعاً على قصيدة فولتير، ولزم فولتير الصوت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية في موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله " كانديد أو التفاؤل" عام ١٧٥٩، وهي قصة ظلت حديث العالم لمدة جيل، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير.

لقد ألفت قصة "كانديد" أساساً لنقد مذهب التفاؤل الفلسفي كما يبدو عند ليبنتز وبوب. فهي تتضمن هجاءً لاذعاً لما ذهب إليه ليبنتز بأن العالم الراهن هو أفضل وأسعد العوالم الممكنة ، وما ذهب إليه بوب أن كل ما هو موجود فهو حسن وأن الشر الجزئي هو خير كلي. إن هذا المذهب ، كما يصرح فولتير، هو مذهب يأس تحت اسم عزاء، لأنه يقبل بالشر بوصفه حلقة ضرورية في السلسلة العظيمة للوجود. ومتمسكاً بالقول بأن هذا المذهب ليس له معنى من وجهة نظر الفرد الذي يعاني مآسي مروعة ولا يمكن أن يقدم له سلوى[٣٢].

إننا إذا نظرنا إلى أحداث العالم بعين متزنة، كما اقترح فولتير، نجد أي شيء إلا العدل والانسجام والنظام، إذ إن ما نراه هو على الأرجح النزاع والظلم والفوضى المتفشية[٣٣]. إلا أن فولتير لم يقف عند هذه النظرة التشاؤمية للوجود، وإنما تجاوزها إلى ما يعرف بمذهب التحسنية Meliorism، وهو مذهب يرى بأن العالم يمكنه أن يصبح أفضل بجهود الإنسان الموجهة كما ينبغي[٣٤]. ورغم أن فولتير دعا إلى الاستسلام للشرور الطبيعية كالزلازل، فإنه في فلسفته التحسنية طالب باستئصال المفاسد السياسية والدينية في عصره وحماقات حروب السلالات الحاكمة ووحشية محاكم التفتيش. وبدلاً من الخير المجرد للكل التام الذي ليس له معنى بالنسبة للفرد، نادى بالعمل بدون تنظير، لأن العمل يجنب المرء الشرور الثلاثة الكبرى: الضجر والرذيلة والعوز.

إن ما يبدو أنه تصوير سلبي للحياة عند فولتير يتضمن دعوة إلى العمل الفعال والإيمان بقدرة الإنسان لتحسين ظروفه البشرية[٣٥]، وقوله "نحن يجب أن نزرع حديقتنا"[٣٦] دعوة صريحة للعمل الملموس لحل المشكلات الخاصة.

بناء على ما تقدم، نستطيع أن نؤكد على أن فولتير كان متشائماً من عالمه المعاصر بسبب الظلم المتفشي فيه، بيد أنه كان متفائلاً بقدرة الإنسان على التخلص من هذا الظلم بالعمل. ولذلك فإن تشاؤمه يختلف تماماً عن تشاؤم شوبنهاور (١٧٨٨- ١٨٦٠) الذي رأى أن جوهر هذا العالم هو الشر، ولا يمكن التخلص منه إلا بالفناء ، بالعدول عن العمل.

٣. هيوم المتشكك:

عرف الفيلسوف الإنكليزي دافيد هيوم David Hume (١٧١١ -١٧٧٦) بنزعته الشكية في المسائل الفلسفية التي تناولها بالبحث. وقد خصص الفصلين العاشر والحادي عشر من كتابه "محاورات في الدين الطبيعي"، لمناقشة حجج المتفائلين وحجج المتشائمين. ورغم أن هذه المحاورات حافلة بشتى الآراء المتعلقة بالحياة الإنسانية، فإنه لا يتمسك بأي منها، بل نجده يخضعها للنقد والتمحيص، مؤكداً على أن أي رأي مهما كان ضعيفاً إلا واحتمل الصواب، وأن أي رأي مهما كان قويا إلا واحتمل الخطأ. يدور في هذا العمل حوار بين كليانثس المتفائل وفيلون المتشائم حول موضوع هذا البحث في الفصلين المشار إليهما أعلاه، ويشترك معهما في الحوار دميان الذي يقف مع فيلون. علماً أن هذه المحاورات نشرت بعد وفاته عام ١٩٧٩ ، رغم أنه أتمها عام ١٧٦١.

يوضح هيوم في البداية النظرة التشاؤمية للحياة على لسان فيلون ودميان، إذ يؤكدان على أن الناس مقتنعون أقتناعاً وافياً بالحقيقة المحزنة المتمثلة ببلايا الحياة وشقاء الإنسان وفساد طبيعته والمتاع غير المستوفي باللذائذ من ثروة وجاه. وفي هذه النقطة يتفق المعلم اتفاقا تاماً مع السوقي، وجميع الآداب ـ من مقدسة ودينوية ـ قد صورت الشقاء البشري بأفجع بلاغة يمكن للأسى والحزن أن يوحيا بها. والشعراء ـ الذين يصدرون في حديثهم عن الإحساس لا عن مذهب ودين لشهادتهم من ثم قوة أعظم ـ أفاضوا في صور من هذا القبيل. وباستثناء المؤلفين في العلوم الخاصة كالكيمياء وعلم النبات، الذين لم تتح لهم فرصة لمعالجة الحياة البشرية ، يندر أن نجد بين أولئك الكتاب الذين لا حصر لهم واحدا لم يشكو من الشقاء الإنساني ويعترف به. وليس ثمة مؤلف ـ في هذه الفقرة أو تلك من كتابه ـ كان من الحماقة بحيث ينكرها.

ويذهبان إلى أنه كان الأولى بليبنتز أن يشعر بخطئه عندما أنكر هذا الشقاء وجعله جوهريا في مذهبه الفلسفي . وهل يستطيع إنسان ما، ان ينكر شهادة الجنس البشري الموحدة القائمة على الإحساس والوعي بهذه الآلام التي تحفل بها الحياة. فالأرض برمتها ملعونة مدنسة، وثمة حرب دائمة مضطربة بين المخلوقات الحية جمعياً، فالقوي يفترس الضعيف ويبقيه في فزع وقلق دائم. والضعيف بدوره يفترس القوي ولا يني عن إغاظته والتحرش به. والإنسان هو أعظم عدو للإنسان. وبالاستبداد والظلم والهوان والحرب والخيانة والغدر، بهذه جميعا يعذب الناس بعضهم بعضاً. ولكن وإن تكن هذه المهانات الخارجية التي تصيبنا من الحيوانات والأناسي تكون ثبتا مخيفا من الرزايا. فهي ليست شيئا إذا قيست بتلك التي تنشأ في نفوسنا من اختلال مزاج ذهننا وبدننا . وكم منها ما ينشأ من تعذيب الأمراض البطيء؟ والندم والخجل والكذب والحنق وخيبة الأمل والقلق والخوف والكآبة واليأس، منذا الذي مر بالحياة دون غزوات قاسية من هذه المعذبات؟ وإذا اندفع غريب فجأة إلى هذا العالم لرأى كنموذج لأرزاء الحياة مستشفى مفعماً بالأمراض وسجنا مكتظاً بالمجرمين والمذنبين وميدان معركة انتشرت على سلحته الجثث ، وأسطولا يتخبط في المحيط وأمة تضنى تحت وطأة الاستبعد والمجاعة والوباء[٣٧].

هذه الأفكار السوداوية بالحياة وبالإنسان ينكرها كليانشس إنكاراً شديداً ، إذ يبين أنه لا يلاحظ ما يذكره فيلون ودميان في أناس آخرين ، ولكنه يعترف أنه لا يشعر به في نفسه إلا شعوراً ضئيلاً أو لا يشعر بشيء عنه، ويأمل أنه لا يبلغ من الشيوع المبلغ الذي تصوراه. مؤكداً أن مثل هذه التصورات الحزينة والاستدلالات على الشقاء تتعارض مع الواقع والتجربة. ذلك لأن الصحة لأعم من السقم وأن اللذة لأعم من الألم ، وأن السعادة لأعم من الشقاء. وعند الإحصاء نجد أن كدراً واحدا نلقاه ندرك معه مائة من المباهج(٣٨).

يرد عليه فيلون بأننا " لو سلمنا بموقفك ـ وإن يكن مفعما بالشك ـ ينبغي لك أن تسلم في الوقت نفسه بأن الألم إذا كان أقل تكراراً من اللذة فهو أشد وأقسى بما لا يحد . إن ساعة من الألم لخليقة أن تعدل ـ في الغالب ـ يوماً أو شهراً من مباهجنا العامة التافهة" ثم يردف فيلون قائلاً" إذا سلمنا لك بما لن يمكن قط الاعتقاد به ـ أو على الاقل ـ ما ليس في وسعك قط التدليل عليه، وهو أن سعادة الحيوان أو على الأقل سعادة البشر في هذه الحياة تفوق شقاءهم، فأنت مع ذلك لم تفعل شيئاً بعد. إذ أن هذا ليس ـ بأيه حالة ـ ما نتوقعه من قوة لا متناهية وحكمة لا متناهية وخير لا متناه"(٣٩).

عندئذ يرى كليانشس أنه إذا كان من المستحيل على الدوام التوفيق بين خليط من الشر في العالم وبين الصفات اللامتناهية، فيمكن الاقتراح بأن الله محدود الكمال(٤٠).

يجيب فيلون بأنه كان الأولى بالله ـ إذا كانت قوته محدودة تماماً ـ أن يخلق عددا أقل من المخلوقات ويمدها بمواهب أكثر لسعادتها وبقائها. ويقترح مذهب المانوية كفرض ملائم لحل للإشكال، ولا يشك أنه أصح في بعض المواطن وأقرب إلى الرجحان من الفرض الشائع، إذ يفسر تفسيراً ميسوراً الامتزاج الغريب الذي يظهر في الحياة بين الخير والشر. ولكنه سرعان ما يرفض هذا الفرض، لأن الاتساق الكامل والاتفاق بين أجزاء العالم لا يكشف لنا أن هناك صراعاً بين موجود حقود وموجود جواد. بل إن هنالك تعارضا بين الآلام واللذائذ في مشاعر المخلوقات الحاسة.إن النتيجة الصحيحة هي أن المصدر الأصيل للأشياء جميعاً يقف موقف سوية من جميع المبادئ ، ولا يفضل خيراً على شر ولا حاراً على بارد أو اليابس على الرطوبة أو الخفة على الثقل(٤١).

ثم يضع فيلون أربعة فروض تختص بعلل العالم الأولى وهي : أن بها خيرية كاملة ، أو أنها مشتملة على شر كامل، أو أنها متعارضة ففيها خير وشر، أو أنها خالية من الخير والشر معاً. والظواهر الممتزجة لا يمكن البته أن تدلل على المبدأين الأولين غير الممتزجين ، وتناسق القوانين العامة وثباتها يبدو متعارضاً مع الثالث. ومن ثم فالفرض الرابع يبدو أرجحها إلى حد بعيد . وما يصدق على الشر الطبيعي يصدق على الشر الأخلاقي(٤٢).

ورغم أن هيوم انتهى على لسان فيلون إلى هذه النتيجة، فإنه يؤكد شكه بقدرة الإنسان الوصول إلى يقين بهذه المسألة المتعلقة بشقاء الإنسان أو سعادته ، ولهذا لا يمكن أن نقول إنه كان متشائما أو كان متفائلاً .

وهذا ما يتبين في هذا النص المهم لهيوم: " ليس هناك تكهن مهما يكن وحشيا ـ بصدد تدبير العالم إلا أحتمل الصواب ، وليس هناك تكهن ـ مهما يكن مستحبا ـ إلا احتمل الخطأ. وكل ما يعود إلى الفهم البشري في هذا الجهل العميق وهذا الغموض ينبغي أن يكون شكياً أو على الأقل يؤخذ على حذر ولا يبيح فرضاً ، أيا كان، وأقل من ذلك أن يبيح فرضاً لا يدعمه مظهر، من مظاهر الرجحان والآن، هذا ما أراه بصدد علل الشر جميعاً والملابسات التي يعتمد عليها .فليس ثمة واحد منها يبدو للعقل البشري في أقل درجة ضرورياً أو لا معدي عنه، كما أننا لا نستطيع أن نفترضها كذلك دون أن يكون هذا إغراقا في الخيال"(٤٣)

النتائج:

١. يؤكد ليبنتز المتفائل على أن الخير أكثر من الشر في هذا العالم، بينما رأى فولتير المتشائم العكس، في حين يتوقف هيوم عن الحكم.

٢. سعى ليبنتز للتدليل منطقياً على أن الشرور هي عناصر جوهرية في تركيب العالم، لأن أي عالم يخلقه الله لابد أن يكون أقل كمالاً منه، أي يتصف بالنقص، وهذا النقص هو مصدر الشرور، ولا يمكن أن يتفاداه الله إلا بعدم الخلق، بينما يبرهن فولتير بالرجوع إلى العالم المحسوس على أن هذا العالم حافل بالشر.

٣. يبرر ليبنتز وجود الشر على أساس أنه أداة للخير، بينما يدين فولتير كل المظالم التي تعاني منها البشرية.

٤. يقول ليبنتز بالعناية الإلهية، إذ إن الله يفعل كل شيء على أفضل وجه يتمناه الإنسان، في حين ينكر فولتير أن تكون هناك مثل هذه العناية، ودليله في ذلك وجود الشرور، رغم إيمانه بأن هناك إلها للكون .

٥. يذهب ليبنتز إلى أن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، لأن أي عالم أخر قابل للوجود لابد أن يكون أسوأ منه، بينما يوضح فولتير أنه غاية في السوء ، ولهذا طالب بتغييره نحو الأحسن. يرى ليبنتز الشر من وجهة نظر كلية، حيث يساهم مع الخير في خلق عالم أجمل وأكمل، في حين يؤكد فولتير أن هذه الرؤية ليس لها معنى وجهة نظر الفرد الذي يعاني من مآسي مروعة ، ولا تقدم له سلوى.

هوامش البحث ومصادره:

(١) لمعرفة المعاني المختلفة للتفاؤل والتشاؤم يراجع: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة : خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ٢٠٠٨، المجلد الثاني، ص٩١٥ـ ٩١٧؛ د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، منشورات ذوي القربي، قم، ١٣٨٥، (تقويم الفارسي)، الجزء الأول، ص ٢٧٤ـ ٢٧٥؛ ص ٣١٢ـ ٣١٣.

(٢) Loemker , L.E., Pessimim and Optimsism , Article in " The Encyclopedia of Philosophy", Macmillan, New York, ١٩٦٧, P.١١٧.

(٣) Fonnesu, L., The Problem of Theodicy Article in " The Cambridge History of Eigteenth – Century Philosophy " , Cambridge , ٢٠٠٧, Vol. ٢, P. ٧٥٢.

(٤) Cammins, P.L., Bayle, Article, in " The Cambridge Dictionary of Philosophy", Cambridge Dictionary of Philosophy', Cambridge, ٢٠٠٦, P.٧٥.

(٥) آرثر، لفجوي، سلسلة الوجود الكبري، ترجمة: د. ماجد فخري، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٤، ص ٣١٦ـ ٣٢١.

(٦) Hakim, Albert B., Historical Introduction to Philosophy, Prentice Hall, New York, ١٩٩٧, P.٣٩٩.

(٧) ينظر: ليبنتز، المونادولوجيا، الفقرتان ٥٣ـ ٥٤، ترجمة: د. عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة ، القاهرة، ١٩٧٤م.

(٨) ليبنتز، المبادئ العقلية للطبيعة والعناية الإلهية، الفقرتان ١٠ـ ١١، ترجمة: د. عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤م.

(٩) ليبنتز، مقالة في الميتافيزيقا، الفقرة ١، ترجمة: د. الطاهر بن قيزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٦م.

(١٠) Adams, Robert M., Theodicy, Article in: "The Cambridge Dictionary of Philosophy", Cambridge ", ٢٠٠٦, P. ٩١٠.

(١١) إن ميداس MIDAS في الأساطير ملك فريجينا من بلاد اليونان، توسل إلى الإله باخوس أن يخلع عليه ملكة تحويل ما يمسه إلى ذهب، فلما استجاب له الإله تبين له بطلان تلك الأمنية ، إذ إن كل ما كان يلمسه من مأكل أو مشرب كان يتحول إلى ذهب.

(١٢) آرثر لفجوي، سلسلة الوجود الكبرى، ترجمة: أ.د. ماجد فخري، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٤. ص٣٣٨.

(١٣) See: Hakim, Op. Cit. p.٤٠٠.

(١٤) أميل برهييه، تاريخ الفلسفة، الجزء الرابع: القرن السابع عشر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٠٧ـ ٣٠٨.

(١٥) تراجع مقدمة د. الطاهر بن قيزة، لترجمته "مقالة في الميتافيزيقا" لليبنتز المذكورة أعلاه، ص٥٦.

(١٦) جان فال ، طريق الفيلسوف، ترجمة: د. أحمد مجدي محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧، ص٤٩٣.

١٧() Hakim, Op.Cit., p. ٤٠١.

(١٨) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ص١٣٩.

(١٩) نفس المصدر والصفحة .

(٢٠) ج.ب، بيري، فكرة التقدم، ترجمة: عارف حديفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٨، ص٩٣.
(٢١) نفس المصدر والصفحة.
(٢٢) Mossner, E.C, Alexander Pope, Article in " The Encyclopedia of Philosophy" Macmillan, New York, ١٩٦٧, P. ٣٩٧.
(٢٣) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة: أوربا الوسطى، ترجمة: محمد على أبو درة، الجزء الأخير من المجلد التاسع (٣٨)، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص١٦٦.
(٢٤) نفس المصدر والصفحة.
(٢٥) Torrey, N.L., Voltaire, Article in " The Encyclopedia of Philosophy", Vol.٨, P. ٢٦٥.
(٢٦) ديورانت، قصة الحضارة، (٣٨)، ص١٧٠- ١٧١.
(٢٧) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٩٠.
(٢٨) ديورانت، قصة الحضارة ،(٣٨)، ص١٧١- ١٧٣.
(٢٩) Torrey, Op.Cit, p.٢٦٥.
(٣٠) آرثر لفجوي، سلسلة الوجود الكبري، ص٣١٨.
(٣١) ديورانت، قصة الحضارة، (٣٨)، ص١٧٣- ١٧٤.
(٣٢) Torrey,Op.Cit, P.٢٦٥.
(٣٣) Moore, B.N., and Bruder, k., Philosophy: The Power of Ideas, McGraw - Hill , New York, ٢٠٠٥, p.٤٠٩.
(٣٤) موسوعة لالاند الفلسفية ، المجلد الثاني، ص٧٨٢- ٧٨٣.
(٣٥) Torrey. Op.Cit., P. ٢٦٥.
(٣٦) Gutting, G., Voltaire, Article in " The Cambridge Dictionary of Philosophy", p.٦٩٤.
(٣٧) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٠٨- ١١٣.
(٣٨)المصدر نفسه، ص ١١٤، ١١٩.
(٣٩)المصدر نفسه، ص١٢١
(٤٠)المصدر نفسه، ص١٢٣.
(٤١) المصدر نفسه، ص١٣١، ١٣٥- ١٣٦.
(٤٢) المصدر نفسه، ص١٣٦.
(٤٣) المصدر نفسه، ص١٢٦.